الحســـناء الضـائـعة

نجوى خالد / الجزائر

يحكى أنه في قديم الزمان وســالف العصــر والأوان كان هناك ملك قد أعرض عن الزواج لمدة طويلة وهذا خوفا من إنجاب البنات ، فقد كان وحيد والديه وســط ســبعة بنات وقد كان والده يلقب بأبو البنات فكبر في عقدة من البنات وخاف أن يكون مثل والده ، وبعد ضـغط من وزرائه و مسـتشـاريه قرر أخيرا الزواج ، وأقنعوه أن الخلفة هي أمر مقدر من الله و أن الزواج نصف الدين ، وافق ولكن في قرارة نفسه لا تزال هنـاك عقدة من البنـات و من لقب أبو البنـات ، أختـار فتـاة جميلـة وطيبـة وتزوج في حفل كبير حضـره كل أهل المدينة . كانت العروس سـعيدة وكأنها في حلم ، فزواجها كان أسـطوري . مرت أيامها الأولى كالحلم الى أن صـارت حاملا كي تستيقظ على كابوس قلب حياتها رأسا على عقب حيث أن الملك زوجها عادت له وساوس أن ينجب بنتا ، و وصل به الأمر أن أخبر زوجته أنها لو أنجبت بنتا أن يدفنها حية ، لم تعرف عروســه المســكينة أن تفرح بحملها أو تخاف من أن تنجب بنتا ، وباتت تدعو الله ليلا نهارا أن لا يهبها بنتا وإن كانت بنتا أن يحفظها ويهدي والدها لعدم قتلها ، مرت سـبعة أشـهر من حملها كالبرق وبدأ يقترب موعد ولادتها الذي بات فاجعة بالنسبة لها خوفا على جنينها إن كان بنتا ، كانت تجيد الحياكة منذ صـغرها فقررت أن تحيك جورب لطفلها القادم لتلهي نفسـها عن التفكير والخوف وكان هذا الجورب بالحرير الخالص وخيط الذهب ، انهت حياكته وخبأته لتلبســه لطفلها خصـوصـا أنها سـتلد في الشتاء.

دخل أول يوم من شـهرها التاسـع الذي بات نذير شـؤم وأزداد قلق الأم على جنينها الذي أصـبح يرفس وأحسـت به وأحبته وخافت عليه قبل أن تراه إنها الأم تعطي دون مقابل، بدأ العد التنازلي وأقترب موعد الوضـــع ، وفجأة ظهرت مهمة للملك في أحدى القبائل التابعة لمملكته وقعت حروب وأضـــطر لتوديع زوجته والذهاب لحل المشكلة . وأعتقد أنه سيعود قبل أن تضـع زوجته لكن بعد أن فاتت ثلاث أيام أشتد البرد وسقطت الثلوج حتى اكتست

الأرض حلة بيضـــاء وأغلقت الطرق وصـــعبت عودة الملك واضـــطر للبقاء حتى تذوب الثلوج وتفتح الطرق، وفي هذه الأثناء بدأت آلام المخاض تقطع أحشـاء الملكة في ليلة باردة وكانت العواصـف الثلجية تصفر خارجا فلم يستطيعوا إحضـار الطبيب سوى إحدى الدايات التي كانت عجوزا ضـعيفة تسكن قريبة من القصر التي أتت على جناح السرعة لمساعدة الملكة في ولادتها ، بعد صـراع طويل مع الآلام ومد و جزر صرخ مولود الملكة التي خارت قواها. و أول سؤال سألته : ماذا أنجبت ؟

فقالت الداية: إنها بنت كالقمر ذات شعر ذهبي ووجه كالبدر ، مبروك عليك صاحبة

الجلالة .

قالت الملكة : بنت ...يا إلهي لا أعلم هل أفرح أم أبكي هاتها أخذتها وضـــمتها ونزلت من مقلتيها أنهار من الدموع

فنظرت الداية المسنة و قالت : لماذا تبكين ماذا يحدث ؟

فردت الملكة : ساعديني ابنتي في خطر !! جدي لي حلا سيدفنها والدها حية وأصبحت تقبل يدي العجوز وتقول لها : ساعدي ابنتي أرجوك

قالت العجوز : يا الله لهذه الدرجة !!

ثم فكرت قليلا وقالت : لدي فكرة لقد ســاعدت امرأة بدوية قبلك في الولادة وقد أنجبت طفلا ميتا ســآخذ ابنتك لها وأجلب الطفل الميت لك وأخبري زوجك أنك أنجبت طفلا ميتا الى أن نجد حلا ونقنعه بالبنت . مسحت الملكة دموعها و قالت : هل أنت واثقة منها ؟ هل تحفظ السر ؟

ردت العجوز : ســنســكتها ببعض النقود فهي فقيرة ولن أخبرها أنها ابنتك حتى نجد حلا . وافقت الملكة على الفور لفت ابنتها جيدا ثم ألبســتها الجورب الذي حاكته بيدها ، وأخذت تقبلها وتشـــم ريحها وكأنها تودعها لآخر مرة ، خرجت العجوز من القصـــر والفجر يكاد يلوح بوشـــاحه واتجهت الى البدوية ، رفضـــت في باديء الأمر ولما رأت النقود وافقت على الفور وأعطتها الطفل الميت ، و لم تخبرها ابنة من هي لكن عرفت من جوربها والنقود الكثيرة التي أعطتها العجوز لها أنها ابنة أثرياء.

اتجهت الداية العجوز الى القصـــر مســـرعة والبرد يلفحها من كل اتجاه وأعطت الطفل الميت للملكة وطمأنتها أن ابنتها في أمان وأن المرة القادمة سوف تخبرها عن مكان ابنتها واستأذنت منها حتى تذهب وترتاح في بيتها فقد أحست بتعب شديد وفي الصباح انتشر خبر ولادة الملكة لطفل ميت فكانت الملكة منهارة وتبكي بكاء شـــديدا ظن الكل أنها تبكي ابنها الميت ولكنها كانت تبكي ابنتها التي لم تفرح بها وسلمتها لحمة طرية لإنقاذها من بطش والدها الذي بات في نظرها سفاحا ، اتجه حراس الملك لإيصال الخبر إليه وإحضاره و وصل الملك وأتجه مباشرة الى جثة ابنه المزعوم وأحتضنه وأنهار باكيا ثم قال : آه كم أن الأبوة شـــعور رائع ولكن ..... بعد ماذا. دفن الملك جثة ابنه بعد جنازة ملكية كبيرة حضـــرها الجميع وعاد خائبا حزينا للقصـــر وكانت زوجته منهارة أكثر منه و كانت تتجنب الحديث معه حتى لا يكتشـــف ما فعلته ، دخل الحاكم غرفته وأغلقها على نفســـه ثم بدأ يتحدث وحده قائلا : أعلم يا إلهي أنك عاقبتني لأني وصلت الى قمة الجهل والغباء و رفضت نعمتك من قبل أن تأتي أدركت أنها العدالة الإلهية

فقد أذنبت ورفضـت فكرة أن أكون أبو البنات فأصـبحت أبا لطفل ميت يا إلهي لقد ندمت سـامحني وأنا الآن راض بقدرك تمنيت أني أبا لبنتا حية وليس لابن تحت التراب سامحني يا رب.

كانت الملكة تنصـت لحديث زوجها وكم كانت فرحتها لأن زوجها اسـتعاد رشـده ووعيه ثم أخذت تدق الباب دقات وراء بعضـها ،فتح الباب نظر إليها وأسـتغرب وجهها الذي بدى عليه السـعادة في ظل هذا الوضع .

فقالت :احقا ما سمعت ؟؟؟ هل ندمت ؟ هل ستقبل البنات ؟

طأطأ رأسه قائلا : بعد ماذا ؟ بعد موت ابننا وربما كان بسبب معاناتك مني نفسيا وأنت حامل .

فردت : أنت أب لطفلة جميلة وهي حية ترزق .

رد الملك :ماذا ؟ كيف والطفل ؟!.

فقصـت عليه الملكة ما فعلت من أجل إنقاذ ابنتها ففرح كثيرا وأحتضـن زوجته باكيا طالبا السـماح عما أقترفه في حقها وحق ابنته ورحل مسـرعا الى الداية كي تخبره عن مكان ابنته وإحضـارها في الحال ، كانت الملكة سـعيدة أنها أخيرا سـتحتضـن ابنتها وتعيش في حضـنها ، و اتجهت إلى غرفتها وطلبت من الجواري تجهيز سـرير طفلتها وفرشـت الأرض بالورود وذهبت تغير ملابسـها وتتجمل لهذا اللقاء الذي كان حلما بالنسـبة لها ، وصـل الملك الى بيت الداية دق الباب مع الحرس مرة وأثنين وثلاثة لا حياة لمن تنادي لا أحد يجيب ، فأمر الملك الحراس بكسـر الباب ودخلوا ليجدوا العجوز ملقاة على سـطح الأرض يبدو كأنها تلفظ أنفاسا أخيرة .

صرخ الملك : احضروا طبيبا بسرعة وأخذها الملك ووضعها فوق سريرها وبعد لحظات وصل الطبيب كشـف عليها وأغلق عيناها قائلا : البقاء لله توقف قلبها . جن جنون الملك وصـرخ لا....لا ابنتي وأمسـك العجوز وهو يصـــرخ ابنتي ....أين هي ؟ أخبريني وأخذ الطبيب يهدأ من روعه قائلا : جلالة الملك إنها ميتة ، ســـكن الملك عن الحركة وقال : ماذا أقول لزوجتي لقد فقدنا ابنتنا الى الأبد ، عاد الملك مهزوما خائبا وكانت الزوجة سـعيدة تنتظر احتضـــان فلذة كبدها ، دخل الملك اسـتقبلته بسـعادة و تفاجآت بلون وجهه الذي لا يبشر بالخير.

فقالت : أين ابنتي ؟! فسكت الملك وطأطأ رأسه صرخت أين طفلتي هل خدعتني وقتلتها ؟

رد : لا .....لا ابنتنا ضـــاعت الى الأبد فالداية ماتت والســـر معها ولم يكمل كلامه حتى وقعت الملكة مغشيا عليها من هول الصدمة وبقيت في غيبوبة وكادت تموت ولما عادت لوعيها بقيت منهارة نفسيا فقد أصبحت دائمة الصمت ، أما الملك فقد حاول البحث عن ابنته دون فائدة فمربيتها أخذتها ورحلت حين لم

تعد إليها الداية ، ومرت السنوات .....وأصبحت الطفلة حسناء تبهر كل من رآها بجمالها وقد أسمتها مربيتها نور القمر. كانت نور القمر أحلى وأجمل بدوية وكل شباب قريتها يتهاطلون خاطبين لها.

عانت الأمرين عند مربيتها فقد أنجبت بعدها بنتا وأحبتها وباتت تعاملها كخادمة ،لكن

والدها كان ينصفها دائما ويحبها أكثر من ابنته الحقيقية فقد كانت نور طيبة حنونة مطيعة عاشت حياة الشقاء والفقر والبداوة وهي أميرة مدللة جراء كره والدها للبنات مع أن البنت نعمة وردة في الأسرة رمزا للحنان والعطاء إلا أن الكثير من الآباء وللأسف مازالوا ينبذون الفتاة حتى اليوم ويعتقدون أنها وصمة عار قنبلة موقوتة ستنفجر في أي لحظة تصفر وجوههم حين سماع نبأ ولادتها متناسين أن البنت رزق ونعمة من الله يقول أحد العلماء إن الأنبياء أباء البنات.

كانت نور تقوم باكرا تطبخ وتغسل وتكنس وتتحمل فوقها الإهانات والشتائم من أمها المربية وقد أعجبت بأحد شباب قريتها وأتاها خاطبا لكن والدتها رفضت ، وهذه المرة قررت نور أن تنطق وتتكلم عن حقها.

فقالت لأمها :اليوم أريد تفسير لماذا تعامليننني هذه المعاملة القاسية ؟ لماذا ترفضين كل خاطب ؟ لماذا بخطأ أو صواب أسب وأشتم عكس أختي الصغرى ألست أبنتك من لحمك ودمك ؟ أصفر وجه الأم ولم تجد جوابا . وفي هذه الأثناء دخل والدها قائلا : ماذا يحدث ؟ لكن نور صرخت أبي كرهت هذا الوضع ذقت ذرعا من هذا العذاب هل أنا ابنتكم أم جارية أفهمني يا والدي. وقع الوالد أرضا باكيا سامحيني يا ابنتي سأخبرك الحقيقة ، نطقت زوجته لا .....لا فقالت نور ماسحة دموعها التي انهمرت كالوديان : عن أي حقيقة تتحدث يا أبي ؟ فقص الوالد لها قصتها وكيف أحضرتها الداية ولما أكمل كلامه انفجرت باكية هل أنا ابنة حرام يا أبي ؟؟

فرد : لا...لا يبدو ذلك فهناك قصة ماء وراء إحضارك لنا وعائلتك تبدو غنية وذهب وأحضر لها الجورب التي كانت ترتديه وهي صغيرة قائلا : هذا دليل عن عائلتك أنه من الحرير وخيط الذهب . أخذت الجورب ونظرت إليهما قائلة : لماذا لم تخبراني لليوم ؟ أم انكما وجدتما خادمة دون أجر بكى الوالد قائلا : والله أحببتك كابنة وأكثر .

فقالت : أسكت أنت لست والدي وكنت تراني في الذل والعذاب ولم تحرك ساكنا والتفتت الى مربيتها التي سكنت عن الحركة والكلام و قالت : لن أسامحكم جميعا فقد دمرتم حياتي ، سأجمع أغراضي وأرحل من هنا . ثم دخلت تجمع ملابسها لحقتها أختها الصغرى باكية بعدما سمعت كل شيء وقالت :لا ترحلي أنت أختي ولن تتركيني نظرت إليها نور منهارة وقالت : أنت ليس لك ذنب ستبقين أختي أما أنا يجب أن أرحل من هنا أنت لديك والديك أما أنا يجب أن أبحث عن عائلتي يا حبيبتي، ثم أخذت أغراضها

وقبلتها أما والدها كان يبكي ويقول لها سامحيني لكنها لم تعيره اهتماما ولم ترد عليه بكلمة ورحلت تبكي ، وفي الطريق وجدها حسام الشاب الذي خطبها في تلك الحالة فقال لها : ما بك ماذا حدث ؟ فقصت عليه ما حدث فصمم أن لا يتركها وأخذها الى أمه وقرر أن يعقد قرانه عليها ويبحث معها عن عائلتها ، تزوجت نور من حسام ومكثت ثلاث أشهر عند زوجها ثم قررت بدء رحلة البحث .

قال لها زوجها حسام : أنت حامل يا عزيزتي والسفر عبر العربة يضر الجنين

فردت نور : لن أصبر أكثر أريد لأبني أن يولد وسط جديه إن كانا أحياء .

فقال : حسنا عزيزتي سننطلق غدا بإذن الله ، وفي الصباح حزما أمتعتهما لرحلة طويلة متجهان الى المدينة التي كانت مربية نور تسكن فيها لعلهما يجدا خيطا يوصلهما لوالديها ،أما الملكة أمها فقد بدأت تعود الى رشدها وقررت فتح ميتم وكان همها أن تدخل السعادة الى قلب كل طفل في مدينتها وكانت كل عام وفي مولد ابنتها بالذات تشتري الهدايا وتقيم حفلة كبيرة تدعو فيها كل الأطفال وتوزع عليهم الهدايا ، وصلت نور الى المدينة و أعجبتها المدينة وانبهرت بها خصوصا حين رأت القصر الملكي ومكثت في المدينة وبدأت بالبحث ، و كانت كل يوم تخرج مع زوجها وتسأل والجورب في يديها اضطرت حتى الدق على البيوت للسؤال عن أمرآة تحيك بهذا الشكل ومرت الأيام والشهور وبدأ بطنها يبرز ولم تجد خيطا يدلها على والدتها التي كانت قريبة جدا منها في القصر الذي تمر عليه نور يوميا مع زوجها وكانت كلما مرت تديم النظر إليه وكأن شيئا ما يجذبها إليه.

كانت الملكة مهتمة بالتحضيرات لعيد مولد ابنتها الضائعة التي تعوضه بجمع أطفال المدينة حولها أما الملك فقد كان سعيدا لرؤية زوجته سعيدة التي بسببه حرمت من ابنتها وحرمها القدر من أن تنجب بعد أن مرضت من جراء صدمتها على ابنتها ونزفت حتى الموت أثناء نفاسها واضطروا لاستئصال رحمها وحرمانها من الإنجاب نهائيا ،وقد طلبت من الملك عدة مرات أن يتزوج وينجب لكنه أبى كونه السبب فيما وقع ،وفي ليلة باردة نهضت نور تصرخ آه .....آه إنها آلام الولادة أحضر حسام الطبيب بسرعة وبعد صراخ وآلام أنجبت صبيا جميلا وقد أسمته بدر ، فرح حسام وقال: مبروك عزيزتي نور. بكت نور واحتضنت ابنها قائلة : أردت أن يلد وسط جديه لكني لم أتوصل إليهما قررت يا زوجي أن نعود الى القرية لا فائدة من بقائنا فلن أعثر على والديا .

فقال : حسنا يا عزيزتي أنا أيضا كنت سأقول هذا فقد انتهت كل نقودنا وكما ترين العمل في المدينة صعب وصاحب البيت طلب الإيجار لذلك سأنتظر حتى تستعيدي قواك أياما ثم نعود ستفرح أمي كثيرا بحفيدها

ردت : اتفقنا، وبعد أيام وفي ليلة باردة والثلج يتســـاقط حزمت نور أمتعتهم مســـتعدة للعودة الى قريتهم دخل حســـام الى نور قائلا : جهزي نفســـك ســـنذهب الى حفلة تقيمها الملكة لكل الأطفال وتوزع عليهم الهدايا

قالت نور :لن أذهب الطقس بارد

رد حســام : المكان قريب البســي بدر جيدا ونذهب لطالما أعجبك القصــر وجاءت فرصــة كي تريه من الداخل قبل أن نرحل غدا . فكرت نور وقالت : حسنا سألبسه جيدا أه تذكرت الجورب سألبسه جوربي حتى أحمي قدميه من البرد ألبست ابنها ولبست وخرجت متجهة الى القصر مسقط رأسها المكان الذي فيه ضالتها التي تبحث عنها ، دخلت تحمل ابنها بيدها تنظر يمينا وشمالا منبهرة بالمكان كانت الموسيقى و الأطفال والجو رائعا سعدت نور كثيرا وقالت لحسام شكرا عزيزي إنه جو رائع وفجأة دخلت الملكة وســـكت الجميع وتكلمت الملكة قائلة : اليوم هو يوم عزيز علي هو يوم ولادتي لابنتي وفقدانها في نفس اليوم ولا شئ يدخل السعادة لقلبي قدر رؤية الأطفال سعيدة .

نظرت نور الى حسام قائلة : مسكينة الملكة توفيت ابنتها ودمعت عيناها . فقال حسام : لا وقت للدموع عزيزتي انبسطي فقالت : تذكرت فقداني لأمي ولم تتصور واحدا بالمائة أنها هي المقصودة بدأت الحفلة والكل يرقص والأطفال تأكل الحلوى والبالونات تطير والملكة تتجول وســـط القاعة وتســـتمتع برؤية الأطفال والحشـود وصـلت الملكة قرب نور ولمحت طفلها ولمحت لمعان جوربه توقفت تمعنت جيدا ما رأته وقالت : إنه جورب طفلتي غير معقول ؟

اقتربت تتمعن ونور لم تنتبه لتحديق الملكة لرجلي طفلها وفجأة اســـتدارت نور لتقع عينها بعين الملكة أحسـت نور بإحسـاس غريب لم تسـتطع الملكة الحديث من هول الصـدمة فأشـارت الى جورب أبن نور والدموع تترقرق من عينها فنظرت نور إلى الجورب ونظرت الى حال الملكة وقالت نور : لا....تقولي أنك أنت حائكة الجورب انفجرت الملكة باكية مشـيرة برأســها : نعم ....نعم ، ثم نطقت: وأنت لا تقولي أنك صاحبة الجورب صرخت نور أمي وأعطت طفلها لحسام ، حسام لم يفهم شيئا احتضنت نور والملكة بعضـهما وكلتاهما تصـرخان أمي ...ابنتي توقفت الموسـيقى وهدأت الحشـود وصـمتت لتتفرج على هذا الموقف المحزن والمفرح في نفس الوقت هدأت الملكة قليلا أخذت حفيدها لتقبله من كل مكان وهي تشكر الله وتحمده.

ثم قالت: اكملوا الحفلة فقد صـــارت حفلتين وأخذت نور وطفلها وزوجها واتجهت الى الملك الذي ما إن عرف بالأمر حتى خر ساجدا يشكر الله قائلا : الحمد لله فقدت بنتا فعادوا أثنين بنتا وولدا .

فقال حسام : احم احم ثلاثة يا عمي وأنا لست محسوبا ضحك الملك والملكة ونور وقالت له الملكة : أنت الكل في الكل يا ابني يكفي أنك حفظت ابنتي ورعيتها .

قالت له نور : أحمد الله فحظك من ذهب تزوجت بدوية فتحولت الى أميرة ضـــحك حســـام و ضـــحكوا جميعا وانتهت ســـنين العذاب وعمت الســـعادة ولم تنس نور العائلة التي ربتها فقد زارتهم وانحنت أمها المربية لها فقالت لها نور : لا تنحني لي فقد كنت في يوم من الأيام أما لي وراعيتني ، وأتت أختها الصغرى من بعيد تصرخ أختي نور عادت ألم أقل لكم أنها لن تنسانا واحتضنت نور أختها وجاء والدها المربي مطأطأ رأسـه فاحتضـنته قائلة : سـامحتك يا أبي ثم قالت كم أنا محظوظة لدي أُمان وأبوان جئت آخذكم لنعيش كلنا كعائلة واحدة وننسى الحقد والكره والعذاب ونفتح صفحة جديدة مليئة بالحب والسلام .